في منزليّ حسين مروة ومحمد شرارة في العراق
أصبحت بالتدريج شيوعياً رومانسياً

في العامين اللذين قضيتهما في العراق بين الكاظمية وبغداد لمتابعة دراستي في المرحلتين المتوسطة والثانوية برعاية ابن عم والدي الشهيد حسين مروة (١٩٤٧ و١٩٤٩) اغتنت معارفي في الثقافة وفي السياسة وفي كل ما كان يجري من أحداث في العالم العربي وفي العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية التي كان للجيش الأحمر السوفياتي دور أساسي فيها في الانتصار على النازية والفاشية. وأشهد أن لأبي الثاني حسين مروة ولصديقه ولرفيق عمره المفكر الماركسي والأديب محمد شرارة دور في ما أشرت إليه من غنى في معارفي وفي شخصيتي. ومن خلال وبواسطة ورعاية هذين العلمين البارزين في الثقافة والسياسة تعرفت إلى العديد من المثقفين والسياسيين العراقيين وكان من ضمنهم قياديون في الحزب الشيوعي العراقي. وهكذا نضجت بالتدريج شروط انتسابي إلى الشيوعية في صيغة أقرب إلى الرومانسية.

لقد كتبت في أكثر من مناسبة عن حسين مروة مفكراً تراثياً وأديباً وشهيد أفكاره الحرة. ولن أكرر هنا الحديث عنه. وأعيد القارئ إلى كتابي "ملامح الشخصية اللبنانية في سير وإبداعات المثقفين اللبنانيين" الذي يستطيع القارئ أن يقرأ بين سطوره نصاً كاملاً عن حسين مروة في سيرته الفكرية والأدبية والسياسية وفي شروط استشهاده على يد الظلاميين إلى جانب رفيقه المفكر الماركسي مهدي عامل الذي يجد القارئ في الكتاب المشار إليه نصاً حول سيرته الفكرية وشروط استشهاده على يد الظلاميين.

إلا أن لمحمد شرارة واجباً عليّ في استحضار سيرته الفكرية والسياسية والأدبية وفاء للدور الذي مارسه عليّ في حياتي, وبدوره في إغناء معرفتي وإنماء شخصيتي.

و **محمد شرارة هو مثقف مزدوج الإنتماء. هو لبناني الولادة والنشأة. وهو عراقي في مجمل نشاطه الثقافي والسياسي داخل العراق حتى آخر العمر. بدأ حياته منذ شبابه الباكر طالباً يدرس الفقه في جامعة النجف. ثم تخرج منها فقيهاً. كان وهو يدرس أصول الفقه في النجف يتابع بالسر مع رهط من أصدقائه البحث عن المعرفة في ميادينها المختلفة. وكان يقرأ بشغف ما كان يعثر عليه من الكتب التي تهتم بالأدب وبالتاريخ وبالفلسفة وبالعلوم. وحين تخرج من جامعة النجف فقيهاً كان قد أصبح في الآن ذاته أديباً وصاحب ثقافة واسعة. مارس تدريس الأدب في عدد من المدن العراقية وهو في زي رجل الدين. وحين شعر أن ثمة تناقضاً بين زيه الديني وبين**

ممارسة نشاطه الثقافي خلع العمامة والجبة، وصار مدنياً. وانصرف بكل طاقاته إلى العمل في ميدان الأدب شاعراً وناقداً أدبياً. لكنه لم يكتف بالأدب ميداناً لاهتماماته ولعمله الإبداعي. فأضاف إلى اهتماماته الثقافية بعد أن صار مدنياً السياسة والعمل في ميدانها من الأبواب الواسعة. وسرعان ما قادته اهتماماته السياسية إلى أن يصبح شيوعياً. وقادته شيوعيته إلى البحث عن ماركس وعن أفكاره حيثما توفرت له الإمكانات. وهكذا صار بسرعة فائقة أديباً ذا مرجعية ماركسية.

كان أول ما واجه محمد شرارة بعد تخرجه من النجف البحث عن عمل في وظيفة حكومية. وكانت عائلته تكبر وتزداد متطلباتها. وكان يهمه كثيراً تعليم بناته، بخلاف التقاليد السائدة. وكانت تقلقه صعوبة إقدام رجل دين مثله على تعليم بناته في النجف. كان، وهو في موقع رجل الدين، يتطلع إلى الحياة المدنية التي كانت تتلاءم مع أفكاره الجديدة المتحررة ومع مشاعره المرهفة. كان يعتبر أن المهيمنين على الدين وعلى مؤسساته بعيدون في أفكارهم وفي سلوكهم عن جوهر الدين، وأنهم يقولون ما لا يفعلون. تقدم محمد شرارة في عام ١٩٣٦ مع نفر من زملائه رجال الدين بطلب إلى وزارة المعارف العراقية للعمل في سلك التعليم. فلبَّت الوزارة طلبهم. وعيَّنتهم لتدريس اللغة العربية في المدارس الثانوية، رغم أنهم لم يكونوا يحملون شهادات جامعية. استندت الوزارة في تعيينها لهم إلى الشهادات والإجازات في علوم اللغة العربية والعلوم الدينية التي زوَّدتهم بها جامعة النجف. عيّن الشيخ محمد في عام ١٩٣٦ في ثانوية مدينة الناصرية مدرِّساً للأدب العربي. وبدأ ينشر في مجلتي "الحضارة" و"الهاتف" مقالات كان يعالج فيها قضايا فكرية وأدبية. إلاَّ أنَّ الحياة الجديدة كانت مضنية في جانبيها العملي والروحي. فالقيام بالواجبات التدريسية كان يستنزف وقته وقواه. يضاف إلى ذلك أنه رأى في عقلية المدرسين وفي نظرتهم للحياة تخلفاً أبعدهم عن الإلمام بالمعرفة وبالثقافة. الأمر الذي جعله يشعر بالغربة. وكانت الوظيفة التي اختارها تحرمه من الاستقرار. إذ كان عليه أن ينتقل من مدرسة إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى. فمن مدينة الناصرية إلى مدينة كربلاء ثم مدينة أربيل ومدينة الحلة، إلى أن استقر به المقام في العاصمة بغداد في أواسط أربعينات القرن. لكن مدينة الحلة كانت من أحب المدن إلى نفسه. فقد استطاع أن ينسجم مع الكثيرين من أهلها، وأن يجد في المدرسة مدرسين ينسجم وإياهم فكرياً. واطلع في تلك الفترة على بعض الكتب الأجنبية التي أثرت فكره وجعلته يسعى إلى مزيد من المعارف والمفاهيم الجديدة. وهو يذكر بالذات في تلك الفترة كتابيّ "استشهاد الإنسان" لون ود ريد، و"دليل المرأة المثقفة" لبرنارد شو. يتناول الكتاب الأول قضايا الحرب

والدين والحرية والعقل، فيما يتطرق الثاني إلى الأنظمة التي مرَّ بها المجتمع البشري كالرأسمالية والاشتراكية والنازية والشيوعية. لقد جعلته تلك الكتب يدرك معنى ودلالات الأحداث التي كان يشهدها العراق والعالم خلال الحرب العالمية الثانية، والتي هيأت له الشروط لكي يدخل في السياسة من أبوابها الواسعة.

في عام ١٩٤٧ تعرفت إلى محمد شرارة، عندما ارسلني والدي الشيخ احمد إلى بغداد لمتابعة دراستي في مدارسها الثانوية برعاية ابن عمه حسين مروة. كان كل من محمد شرارة وحسين مروة قد أصبحا في عالم الثقافة والفكر التقدمي وفي السياسة علمين بارزين. كان محمد شرارة قد أصبح في الفكر ملتزماً بالماركسية، بعد أن جهد في قراءتها من مصادرها الأساسية، باللغتين العربية والإنجليزية. إذ كان قد باشر بتعلم الإنجليزية بمساعدة أحد أصدقائه عندما كان يمارس تدريس مادة الأدب في مدينة الحلة. وصار منزل كل من حسين مروة ومحمد شرارة ملتقى للأدباء والمفكرين وأهل السياسة من الوطنيين من شتى الاتجاهات. وكان بعض أولئك السياسيين من قادة الحزب الشيوعي العراقي.

مارس محمد شرارة، حتى قبل أن يخلع زي رجل الدين، الكتابة في المجلات التي كانت تصدر في النجف وفي بغداد. وهي مجلات "الغري" و"البيان" و"المعلم الجديد" و"الهاتف" و"الحضارة". وتابع الكتابة منذ مطالع خمسينات القرن الماضي في مجلة "الثقافة الجديدة" التي كان يصدرها مثقفو الحزب الشيوعي العراقي ومجلة "الآداب" اللبنانية وفي مجلات عراقية وعربية أخرى. لكن مجلتيّ "الهاتف" و"الحضارة" كانتا نقطة الإنطلاق في تكوين شخصيته الثقافية ابتداءاً من ثلاثينات القرن الماضي.

كانت كتاباته تتنوع بين النقد الأدبي والنقد الاجتماعي. كما كانت تتناول، في الفترة التي أعقبت انتقاله إلى الاشتراكية، قضايا فكرية وسياسية. أما قصائده فكان ينشر معظمها في مجلة "العرفان" اللبنانية. وقد جمعت ابنته الأديبة حياة شرارة، قبل أن تقرر في أواخر تسعينات القرن الماضي وضع حد لحياتها، العديد من أبحاثه وحولتها إلى كتب في النقد الأدبي وفي التراث. وهي كتابات تشير بوضوح إلى منهج في النقد خاص به، جمع فيه بين القراءة المتأنية للنصوص، وبين دراسة الشروط الاجتماعية التي ينتمي إليها أصحاب تلك النصوص. كان يرى، من خلال منهجه النقدي، أن للأدب وظيفة اجتماعية لا يستطيع الأديب أن يتحرر منها. لكنه لم يذهب في موقفه إلى الحد الذي يحوّل الأديب إلى مجرد داعية فكرية أو سياسية لحزب سياسي أو حتى

لقضية من القضايا. كان يرى أن على المثقف أن يكون صاحب رأي وموقف، وأن يكون حراً في التعبير عن رأيه وعن موقفه.

يعتبر كتاب "المتنبي بين البطولة والاغتراب" أكثر كتب شرارة تعبيراً عن منهجه في النقد الأدبي، وأكثرها تأكيداً لانحيازه إلى التجديد. وكان في تحولاته الفكرية، كأديب وسياسي في آن، يواصل ما كان قد بدأه وهو في مرحلة الدراسة الدينية في النجف، أعني حركة التمرد والثورة والتجديد. ولم يكن بمقدوره أن يتوقف في منتصف الطريق، وهو المتحدث البارع المتقد حماساً، والمجادل الذي يستنفر في جدالاته كل ما يملك من معارف ومن وسائل إقناع. ويعترف شرارة بأنه تأثر منذ بدايات اهتمامه بالأدب وبالفكر الإجتماعي بعدد من كبار مثقفي عصره من العراقيين خصوصاً. وكان في مقدمة هؤلاء الشيخان محمد رضا ومحمد باقر الشبيبي والشعراء محمد مهدي الجواهري ومعروف الرصافي وأحمد الصافي النجفي. ويحفل الكتابان المكرسان لسيرة شرارة الشخصية والثقافية والسياسية اللذان أصدرهما كل من مصطفى بزي وبلقيس شرارة بالكثير من الأمور التي تبرز مواقفه الفكرية والإجتماعية والأدبية. وتشهد كتابات محمد شرارة بمواقفه الإصلاحية في الدين وفي المجتمع. يقول شرارة في موضوع التجديد: "إن الإبتكار والتجديد هما سنة التطور والتحول، ويتماشيان مع منطق الحياة". والشواهد التي يمكن أن يستقيها المرء من سفر التاريخ كثيرة متنوعة. فالأديان المتعاقبة مثلاً جاءت مكملة لبعضها بعضاً، لأن هناك "أحكاماً خالدة" في الشرائع المختلفة. وعلينا أن نراعي هذه الناحية عندما ندعو إلى النهوض والتجديد. وعلى دعاة التجديد أيضاً أن يفهموا أن في القديم روعة تتضاءل أمامها روعة كثير من جديدهم الذي يدعون إليه ويبشرون به".

ويضيف في نظرته المتفائلة بالحركة التاريخية والتطور الإجتماعي وبنجاح الأفكار العلمية والأدبية في المقال ذاته: "إن الحركات العالمية والإنقلابات الكونية والتطورات الإجتماعية تدلنا بصراحة على أن مبدأها فكرة صغيرة في فجرها، عظيمة في ضحاها، وما السر في ذلك إلا أن مصادر الحركات وقادة الأفكار كانوا على يقين من صحة مبادئهم، ويرون فرضاً لازماً على المجتمع أن يعتنقها ويمشي وراءها، بقطع النظر عما هي عليه في نفس الأمر والواقع–من الصحة والفساد– ومهما لاقت الأفكار من الإضطهاد وصادفت من العقبات والمقاومة، فلا بد من انتشارها إذا كان ذووها ذوي إرادة قوية، ولو أنها تعبر إلى جو غير الجو الذي نشأت فيه".

لكن شرارة، برغم انشغاله الأدبي، كما دلَّت على ذلك مقالاته في المجلات العراقية واللبنانية، فإنه أكثر من انغماسه في العمل السياسي إلى الحد الذي جعله عرضة للاعتقال عدة مرات. وكنت شاهداً على واحدة من تلك الاعتقالات في عام ١٩٤٩. فقد زرته في معتقله في فترة كانت السلطات العراقية تحاول الانتقام من القوى الوطنية والديمقراطية التي كانت قد قادت الانتفاضة الشعبية في عام ١٩٤٨ وأسقطت الحكومة التي وقعت معاهدة "بورتسماوث" الشهيرة. وشملت الاعتقالات يومذاك عدداً كبيراً من الرموز السياسية والثقافية، من بينها الشاعر الجواهري.

ظلَّ شرارة يتعرض للاعتقال على امتداد حياته في العراق، كلما كان القمع يزداد شراسة، لا سيما في المحطات التي شهد فيها العراق انتفاضات شعبية كبيرة. وكان أهمها، بعد انتفاضة عام ١٩٤٨، انتفاضة عام ١٩٥٢ التي هيأت الشروط لثورة الرابع عشر من تموز في عام ١٩٥٨. وكان شرارة في عام ١٩٥٤ قد غادر العراق الى لبنان ليقضي بضعة أعوام في التدريس وفي الكتابة الأدبية. لكنه عاد بعد ثورة الرابع عشر من تموز إلى العراق. ولم يكد يمضي وقت قصير حتى بدأ يشعر أن الوضع في ظل الجمهورية قارب أن يصبح شبيهاً بما كان عليه الوضع قبل الثورة. فغادر العراق إلى الصين. لكن ذهابه إلى الصين صادف انفجار الصراع الصيني السوفياتي. فلم يستطع البقاء طويلاً، لأنه كان قد اختار الوقوف الى جانب الاتحاد السوفياتي في ذلك النزاع بين الجبارين الشيوعيين. فعاد إلى العراق بعد سقوط جمهورية الرابع عشر من تموز. وظل يواجه أقداره، وأقدار عائلته، في السجون والمعتقلات وفي العوز وفي القلق وفي التشرد، إلى أن فاجأته نوبة قلبية حادة أودت بحياته في أواخر عام ١٩٧٩. وكنت أزوره خلال سفراتي إلى العراق في أعوام ١٩٦٠ و١٩٦٢ و١٩٧٨. وكان يحدثني عن متاعبه وعن قلقه وعن اليأس الذي كاد يقتله من إمكان خروج العراق من مأساته الطويلة المضنية. كان من أكثر مراراته وجعاً ما كانت تعانيه ابنته حياة، الأديبة التي تميزت برهافة وغنى وعمق دراساتها في العديد من الكتب التي نشرتها. فقد كانت هي وزوجها عرضة للاعتقال، الذي انتهى بزوجها إلى الموت البطيء بعد أعوام من السجن قضاها تحت التعذيب النفسي والجسدي. وانتهى بها ذلك الوضع إلى الإنتحار في تسعينات القرن الماضي كما أشرت إلى ذلك.

هكذا عاش محمد شرارة على امتداد حياته مثقفاً مبدعاً مزدوج الإنتماء لبنانياً وعراقياً، في النشاط الفكري والسياسي وفي الإبداع الأدبي. وهكذا غادر الحياة حزيناً وكئيباً بالرغم من إصراره على التفاؤل وهو مثقل بالمتاعب.